الدعوة إلى الله
بناء للإنسان
بناء متكاملاً

بقلم : دكتور محمد حسين أبو سم

■■ في البدء نشير إلى أن القرآن الكريم يُعَدُّ منهجاً متكاملاً للدعوة إلى الله في كل زمان ومكان ، كما هو دستور حياة المسلمين في كل زمان ومكان ، ولكن لن يستفيد الداعية من منهج القرآن الكريم في الدعوة إلا إذا تدبر معاني القرآن الكريم ، وامتزجت بروحه ومشاعره ، ثم انعكست أصداء ذلك الامتزاج في سلوكه وجوانب حياته اليومية : وذلك لأن الدعوة إلى الله ما هي إلا جهود متآزرة بوسائل مختلفة من أجل بناء الإنسان بناءً متكاملاً ، بناء فكره ومشاعره ، وبناء روحه وعقله ، وقلبه ومعنوياته : ليكون ذلك البناء عاملاً من عوامل نقل الأمة كلها من محيط إلى محيط .

فما أصعب هذا البناء ، وما أشق ذلك النقل طالما كانا مرتبطين بالإنسان وليس بالحائط أو الجدران : إذ لا يوجد في الكون كُلِّهِ شيءٌ أصعب مراساً من الإنسان ، فهو عصي الانقياد كثير اللدد واللجاج ، لا يُلقي قياده إلا لهواه ، ولا يستسلم إلا لشهواته ، « فما أطوعه لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ، وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ونفقة المال ، بل ما أجمل ذلك وألذه لديه » (تذكرة الدعاة للبهي الخولي : ٣٥) .

مهمة الداعية

ومن ثم نرى أن مهمة الداعية إلى الله من أشق المهام وأصعبها ، خاصة عندما تتمرد الجهالة ويكثر أدعياء المعرفة إلى جانب التسلط والطغيان على المؤمنين من قِبَل أعداء الدين ، ولكن رغم تلك المشقة تكون الدعوة لازمة وضرورة من ضرورات الحياة : وتكون دعامة من دعائم التقدم والتطور رغم الصِّعاب التي قد تعترض المسيرة ، وما ذاك إلَّا لأن الدعوة غرس للعمل الصالح دون غرضٍ أو هوى ، ثم تعهد له بالسقي والرعاية دون منٍّ أو رياء حتى ينمو ويتفرع وتصبح ثماره دانية القطوف ، بل تبقى دوحته مستمرة الإيتاء والعطاء كلما توفر التجرد وابتعد الغرض والهوى .

والتجرد في العمل هو غاية العبادات كلها ، بدءاً بتلاوة القرآن الكريم ، ومروراً بإماطة الأذى عن الطريق وما شابه ذلك ، وانتهاء بأداء الفرائض والواجبات ، كل تلك الأعمال يجب أن تكون خالصة لله تبارك وتعالى دون مَنٍّ أو رياء ، ودون جري وراء الشهرة وكسب إعجاب الناس ، فذلك كله من شأنه أن يفسد العمل ويجعله قبيحاً ، ولا يكون عملاً صالحاً : لأن العمل الصالح يكون قرين الإخلاص والتجرد دوماً ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت : ٣٣) .

حيث أشارت الآية الأولى إلى أن دين الإسلام هو دين الملة المستقيمة ، وهو إنما يتمثل في إخلاص الدين لله والميل عن الشرك وأهله ، على أن تنعكس آثار هذه العبادة الخالصة صلاة وزكاة وما يستلزمهما ويتبعهما ، وأشارت الآية الثانية إلى ضرورة الربط بين الدعوة والعمل الصالح ، إذ لا معنى لقولٍ بلا عمل ، ولهذا كان قول العلامة ابن كثير عند تفسير الآية الثانية :

« أي وهو في نفسه مُهتدٍ ، فنفعه لنفسه ولغيره ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير » (مختصر ابن كثير : ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤) وكان قول الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه : « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ثم كان قول الشاعر :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت فأنت حكيم
فهناك يُقبل إن وعظت ويُقتدى
بالرأي منك وينفع التعليم

وقول الآخر :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوي الناس وهو عليل

وقول أبي العتاهية :

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى
وروح الخطايا من ثيابك تسطع

فالداعية العالم العامل المتجرد يكون أثره عظيماً ونفعه عميماً ، ذلك لأنه والحالة هذه يعمل دوماً على توفير الاستقرار النفسي والروحي لأفراد الأمة فينصرف كل فرد من

أفرادها إلى الجد والاجتهاد في عمارة الكون بحكم أنه خليفة الله في الأرض ، وتلك العمارة هي التي تسمى اليوم بالتنمية الشاملة .

ومن ثم نرى أن للدعوة إلى الله دوراً كبيراً وأثراً فعالاً في التنمية بمفهومها الواسع منذ القدم ، فلقد اختلفت الوسائل وتعددت الأساليب وتفاوتت من عصر إلى عصر ، ولكنها في جميع العصور كانت تعنى بالأنسان باعتباره الطاقة ذات التأثير الفعَّال في مجالات التنمية المختلفة ، وباعتباره الهدف والغاية من العمليات التنموية ، فهو أداة التغيير ، وهو الهدف من التغيير ، ولكنه لن يكون فعالاً ولن يكون قادراً على التغيير دون توجيه وتبصير ، بحيث يدعوه ذلك التوجيه إلى تغيير ما بنفسه ليتغير ما حوله « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ويدعوه ذلك التوجيه أيضاً إلى الابتعاد عن عوامل الأثرة والأنانية ، ونوازع الحسد والحقد ، وعوامل الجبن والخَوَر والاستكانة ، ودوافع الشح والبخل والتقتير ، إلى جانب عشق السلطة وحب التسلط على عباد الله .

فهذه جميعاً من الأشياء التي يجب على الدعاة أن يعملوا على تجنيب أنفسهم منها ثم تجنيب بقية أفراد الأمة : لتصبح البيئة بجوانبها المختلفة (نفسية ، اجتماعية ، روحية ، سياسية ، اقتصادية) نقية صالحة ومعينة على العمل الدؤوب والتنمية المضطردة .

وبذاك تكون الدعوة إلى الله قد بنت الإنسان بناءً متكاملاً ، وتكون الدعوة إلى الله قد جنَّبت الأمة عوامل الضعف التي قد تتسرب فتفت في عضد الأمة من حيث تدري ولا تدري ، تلك العوامل التي أثبتتها الحوادث التاريخية وسنن الاجتماع ، وأكدت أنها هي التي تقود المجتمعات البشرية إلى الفشل وفقدان العزة وضعف الشوكة .

عوامل ضعف الأمة

ونعتقد أن تلك العوامل مهما تنوعت وتفاوتت فإنها ترجع إلى النقاط التالية :

١ ـ الهزيمة النفسية التي تجعل أفراد المجتمع يتأثرون تأثيرات ضارة بما يُثار بينهم من مثيرات وما يذاع من أراجيف .

٢ ـ التفكك وعدم التفاف الأفراد حول هدف وغاية مشتركة تشد الجميع وتجذبهم إليها جذباً .

٣ ـ السكوت على ما يرتكبه أبناء الأمة من مخالفات مالية وغير مالية تقديراً لحسبهم ونسبهم أو اتقاء لسلطتهم وتسلطهم .

● على الدعاة ان يراجعوا خطواتهم لتسير وفق المنهج الإسلامي السليم ويستثمروا كل الإمكانات الفكرية في فقه سنن الكون ودراسة عبر التاريخ وعظاته وقوارعه ●

٤ ـ السكوت على ما يرتكبه بعض كبراء الأمة وبعض القائمين على أمرها من فسوق وآثام فتنتشر حُمى ذلك الوباء وتعم الأمة وتصبح البيئة ملوثة .

٥ ـ القسوة التي تملأ قلوب معظم أغنياء الأمة وتحول بينهم وبين الشعور بحاجة فقرائها ، فلا يحسون بها ، ولا يدركون أنهم مستخلفون في تلك الأموال مؤتمنون عليها وعلى حسن التصرف فيها جمعاً وإنفاقاً ، على أن يراعوا ما فيها من حق معلوم للسائل والمحروم .

٦ ـ الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى التكاثر والصراع حول السلطة والتسلط ، دينية كانت تلك السلطة أم سياسية أم اقتصادية ـ عند من يفصلون بين هذه وتلك .

٧ ـ الجزع والهلع لما يصادف الأمة من أزمات وأحداث وصعاب وعدم التفكير في المقاومة أو التوقي حتى تخر الأمة صريعة أمام الأحداث والخطوب ، أو تستسلم للأعداء أو المحاربين ـ حرباً مادياً أو معنوياً .

ومما يحز في النفس أن معظم هذه العوامل ـ إن لم يكن كلها ـ قد أخذت تُظهر في مجتمعاتنا الإسلامية بنسب متفاوتة من مجتمع إلى مجتمع ومن عامل لآخر ، ففقدت مجتمعاتنا كثيراً من جوانب العزة والكرامة وبنسب متفاوتة أيضاً ، وسيأتي الدمار للأمة يوم أن يحق عليها القول ، إلا أن هذا لا يعني استسلام الأمة وعدم توقيها ، ولكنه يعني التنبيه والدعوة إلى مراجعة المواقف ومحاسبة النفس ، خاصة الدعاة والحكام .

على الدعاة مراجعة خطوات المنهج

على الدعاة أن يراجعوا خطواتهم لتطمئن قلوبهم ، ثم يطمئنّ المدعوون بأن جهود الدعاة تسير وفق المنهج الإسلامي السليم حسب التوجيه الرباني الكريم ، وتستثمر كل الإمكانات الفكرية في فقه سنن الكون ، ودراسة عِبَر التاريخ وعظاته وقوارعه ، وفي استنباطات الأحكام الفقهية لجميع المعاملات المتغيرة والمتجددة في حياة البشر ، بحيث تُقَدَّم تلك الجهود وتمد الفرد بما يحتاج إليه في مجال الفقه السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وفي مجال الدعم النفسي والروحي ، فيتعلم الفرد المسلم من ارتفاع صوت الأذان المتكرر رفع الصوت بالحق وعدم إحناء الرأس لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويتعلم من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية معنى الإيثار ، وحلاوة الصدق في القول والعمل ، وعذوبة الجد والإخلاص في العمل ، وجمال الطهر والنقاء في اللسان والبدن ، وفي الكلمة والضمير ، كما يدرك من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية روعة الحق ، وعظمة الصمود والوقوف إلى جانب الحق صفاً واحداً دون تثبيط بخلافات جزئية ، ودون تفتيت بآراء مذهبية أو نظرات إقليمية ونعرات عصبية .

نعم يتعلم الفرد المسلم من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية أشياء عديدة ترتفع به إلى الدرجات العلى ، أهم تلك الأشياء ما ذكرنا ثم المعنى السامي والمغزى العميق لقول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » يتعلم هذا لا من خلال الأقوال أو التكرار لألفاظ الحديث ولكن يتعلمه من خلال التآزر والتعاون بين الدعاة في القول والفعل ، فيتعمق ذلك المعنى في نفسه ويطبع كل معاملاته مع أخيه المؤمن أينما كان وفي كل زمان ، يعين أخاه في كل شيء حتى في مجاهدة نفسه ، وذلك عن طريق التواصي بالحق والتواصي بالصبر .. وتلك هي الخطوات التي تجب على الدعاة مراجعتها للاطمئنان القلبي .

وعلى المسؤولين واجبات

أما الحكام أو القائمون على أمر المسلمين فعليهم مراجعة مواقفهم من الإسلام ومن

الدعوة إلى الله
بناء للإنسان
بناء متكاملاً

دعاة الإسلام ، إن كانوا مسلمين حقاً بحيث لا يكون وقوفهم إلى جانب الإسلام وقوفاً مظهرياً وشكلياً ، بقصد التباهي والافتخار في اللقاءات والمؤتمرات الإسلامية ، أو بقصد الابتزاز السياسي الذي لا يورّث الأمة سوى النكبات تلو النكبات ، ونعني بالوقوف المظهري الشكلي أنهم يجعلون الإسلام شعارات ولافتات لا أثر لها في حياة الناس ، ولا تمسها إلا بمقدار ما يشير إلى موقع الدولة في خارطة العالم الإسلامي ويشعر بأن دينها الرسمي هو الإسلام ، أما تنزيل الإسلام وتطبيقه على حياة الناس بدءاً بالحكام فالمحكومين فهو أمر فيه كثير نظر ، وربما كان فيه شيء من الخطر ـ في نظر بعض الحكام ـ ولكن على ماذا يا ترى الخطر ؟ أعلى المنصب ؟ المال ؟ أم الجاه ؟ نعم عليها جميعاً ، وفي مقدمتها السلطة ، على الرغم من أنها غير دائمة ، فهي وإن طالت ومهما طالت فإلى أمَدٍ محدود ، وكل فعل فيه مرصود لدى الحي الذي لا يموت ، والآيات الأنفسية والآفاقية خير دليل على ذلك ، فما على أولئك إلا أن يراجعوها ؛ لتعينهم على تغيير ما بأنفسهم من جهل أو عداوة للإسلام ودعاة الإسلام ، فيكفوا عن تحنيط الإسلام في توابيت المؤتمرات ، وفي أضابير الشعارات واللافتات ، ويكفوا أيضاً عن حصر الدعاة ومحاصرتهم في زوايا محددة مراعاة لخطط بطانة السوء ، أو استجابة للموازنات التي يتشدق بها بعض من حكام المسلمين في أخريات الزمان مستغلين ما قد يوجد بين الدعاة من خلافات في مسائل جزئية ، ومن تباين في النظرة المذهبية ، ومن ضعف نفسي ـ أحياناً ـ يقود بعض الدعاة إلى العراك والتطاحن على مآرب لا تستحق بذل أدنى جهد فضلاً عن إقامة معركة .

وجوب التعاون بين الدعاة والمسؤولين في الدعوة إلى الله

فليتق الله عباد الله ، حكاماً ومحكومين ، دعاة ومدعوين ، ولتزل الجفوة والفجوة بين الحكام والدعاة لتتآزر جهودهم من أجل الدعوة إلى الله في شتى المجالات ، وليقرأوا التاريخ قراءة واعية مستبصرة ؛ ليدركوا أن الأمة المسلمة قد مرّت بمحن وشدائد في دورات التاريخ المختلفة ، اتخذت صوراً وأشكالاً من الحدّة والعنف ، لكنها لم تقض على حقيقة الأمة ولم تمحها من الوجود رغم ما ألحق بها من خسائر ، وما ذاك إلا لوجود القرآن الكريم بين المسلمين ، يرفع معنوياتهم ، ويرأب صدعهم ، ويجمع شملهم ، ويذكرهم ـ دوماً ـ بضرورة دعوة الناس إلى الحق والتمسك بالحق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٨١) .

وقد قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية : « والمراد في الآية الأمة المسلمة لحديث « ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ... » [مختصر ابن كثير : ٢/ ٧٠] .

كما يذكرهم القرآن الكريم بضرورة الجهاد والصبر على الشدائد وبذل كل ما يملكون من أجل تحقيق النصر أو الاستشهاد .. فالأجر والثواب المدَّخر ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (النساء : ١٠٤) .

فآية الأعراف : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ تُشير إلى أمة محمد ﷺ ، وكلمة أمة تشمل الحكام والمحكومين والدعاة والمدعوين ، ومعنى ذلك أن الدعوة واجبة على الأفراد والجماعات وعلى الحكام والمحكومين ، وربما كانت على الحكام أوجب وألزم ؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

الدعوة مسؤولية جماعية وفردية حسب الاستطاعة

والدعوة من جانب الأفراد ـ من غير الحكام والعلماء والدعاة ـ هيِّنة يسيرة لكنها ذات آثار كبيرة إذا تواصلت وتواثقت في حدود القدرات والاستعدادات ، بحيث يدعو كل مسلم أخاه المسلم إلى ما هو حق وعدل ، وينهاه عن كل ما يرىٰ فيه من سوء ، ويذكره كلما نسي أو هفا ، فالمؤمن مرآة أخيه ، وهو مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وبهذا سوف لا تسود المنكرات في المجتمعات الإسلامية ، وسيتوجه المجتمع كله نحو الخير والعدل ـ بإذن الله تبارك وتعالى ـ طالما شاع بين أفراده الإيمان الحق والتواصي بالحق ، دون تشدد ، ودون جنوح إلى التكفير للمجتمع بأسره ، أو الهجرة عنه طالما لم تتوفر فيه الصور والأشكال التي ارتسمت في مخيلة بعض المفرطين .

فالتواصي بالحق والإيمان الحق هي السمات الأساسية للأمة المسلمة والتي كانت خير أمة أُخرجت للناس ، وهي الدعائم التي يجب توفرها لدى كل مسلم ، خاصة دعامة الإيمان الحق : لأنها ترتفع بالإنسان من العبودية لسوىٰ الله تبارك وتعالى وتقيم « في نفسه المساواة مع جميع العباد فلا يُذَل لأحد ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار » [في ظلال القرآن : ٦/ ٣٩٦٧] .

وقد يتساءل بعضهم عن الإيمان الحق وعن الضابط أو المعيار الذي يُعْرف به ذلك ، ولا ضابط ولا معيار سوى العمل ، العمل الصالح : ذلك لأن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، وثمار هذا الإيمان لا تَذْوي ولا تذبل ولا تحجب طالما كان الإيمان قوياً والقرآن يرفده ويدعمه ، فهذه الثمار إذن شأنها شأن عطر الورود والزهور الفواحة والتي لا تستطيع أن تُمسك أريجها ، وحينما يحدث أي خلل في تربتها يُدعى لها المختصون ليشخصوا الداء ويذكروا الدواء .

إذا نضب عطاء المؤمن وجب أن يسائل نفسه

وهكذا يجب أن يكون حال كل مؤمن ، حينما يُحس بأن عطاءه في مجال الدعوة إلى الله غير موصول ، أو أن ثمار إيمانه ـ وهي الأعمال الصالحة ـ ضامرة ضاوية يراجع خطواته ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ثم لا يلبث أن يجد أخاه المؤمن إلى جانبه يوصيه بالحق ويوصيه بالصبر على

مجاهدة النفس حتى يتمكن من النهوض بالأمانة الكبرى ، وذاك هو الإيمان الحق .

فالإيمان الحق إذن ليس انكماشاً أو سلبية أو انكفاءً على الذات واكتفاءً بما يدور في مكنونات الضمير ، صحيح أن الإيمان هو ما وقر في القلب ، ولكن لا بد من تعزيزه وتأييده بعمل الجوارح أي لا بد من أن تنعكس أصداء ذلك الإيمان المستقر في النفس على السلوك وعلى القول والعمل :

ليُصبح عملاً صالحاً وقولاً معروفاً ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ (البقرة : ٢٦٣) .

أسلوب الدعوة وأدعياء المعرفة

والقول المعروف والأمر بالمعروف يشيران إلى الخطة والطريقة التي يجب أن يتبعها كل داع إلى الله حتى لا يهدم ما بُني ، أو يُنفِّر من دُعِي ، بالفظاظة والقسوة ، وبالهجوم على النفوس البشرية بما يزعجها ويجعلها في حيرة من أمرها .

وأعتقد أن الذين يسلكون مسلك الفظاظة والتنفير - في زماننا هذا - معدودون أو قليلون ، وهم على الدعوة والدعاة محسوبون ، ولكن انضمت إليهم طائفة من أدعياء المعرفة ومن الطيبين الذين حسبوا أن الآية التي قررت وجود أمة تهدي بالحق وبه تعدل قد أوجبت على كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ أن يكون عالماً داعياً إلى الحق مفتياً الناس فيما تحدث لهم من أقضية ، ومن ثم يكون ضليعاً في أصول الفقه بالمصالح المرسلة عند المالكية والشافعية ، عليماً بقواعد الاستحسان الذي اعتمده الحنفية ، قادراً على الاستنباط والترجيح ، متمكناً من تفسير القرآن الكريم ، وذاك - لعمري - مطلب عسر ، ودعوى لم يقل بها أحد من المفسرين ، وتكليف للناس بما لا يطيقون : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) بل هو إعراضٌ عن سنة الله التي اقتضت التنوع في كل شيء ليتم التعاون والتآزر الذي يحقق التكامل بغية عمارة الكون ، وإلا لفسد دولاب الحياة ، واضطربت الموازين والمقاييس .

الدعوة العامة والتخصص العلمي

ولنضرب مثلاً لذلك بمجتمع صغير أصرَّ كل فرد من أفراده أن يعمل في مجال الطب ، الطب العلمي ، والطب البلدي ، والطب الدجلي ، تاركين مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم . فماذا يا ترى يكون مصير هذا المجتمع ؟ وهكذا كل مجتمع تنحصر فيه جهود أفرادها في جانب واحد دون الجوانب الأخرى سيظهر فيه دون ريب البلديون والدجالون إلى جانب العلماء المختصين بذلك الفرع .

ولا أقصد من هذا .. الدعوة إلى هجر الفقه والدراسات الدينية أو الدعوة إلى جعل الفقه وقفاً على مؤسسات رسمية أو شبه رسمية وعلى شهادات ودرجات علمية لها أسماء أجنبية أو محلية ، فذاك أمرٌ لا يقول به عاقل منصف سيما بعد قول رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ولكن قصدت أن أقول : الفقه والتفقُّه في الدين نفحة ربانية ونعمة إلهية لا يُلقَّاها إلا الذين صبروا ولا يؤتاها إلا ذو حظ عظيم .

وقصدت أن أقول : هناك حد أدنى من الفقه والمعرفة الدينية لا بد لكل فردٍ من أفراد المسلمين مِن الإلمام به ليكمل إيمانه ، وهناك تفاصيل دقيقة ومسائل عميقة لا يُلقاها إلا الذين صبروا على دراسة الفقه وسبروا غور المصادر والمراجع فحظوا بنعمة الله في التفقه في الدين ، فلتتوثق صلتنا بأمثال هؤلاء فهم مصابيح الهدى ، ولنترك الفتوى واستنباط الأحكام الفقهية لهم ، ولننتظر منهم التوجيه الديني الذي يسمو بنا ويعيننا على المضي قدماً في عمارة الكون ، شريطة أن تمدهم الأمة أو المجتمع بكل ما يعينهم على أداء تلك المهمة الجليلة على وجه أكمل وبصورة أفضل ، حتى لا تحدث المضاعفات الجانبية أو الكوارث يوم أن تأتي الأحكام والفتاوى أو التوجيه من غير أهلها المؤهلين بالتفقه والعلم لها بالشهادات وحسب ، وسيكون حالنا يوم ذاك مثل حال المريض الذي يأخذ وصفةً طبية مؤذية من دجال أو طبيب بلدي - لا قدَّر الله - أو المريض الذي يأخذ دواءً لم يقرره طبيب وله مضاعفات جانبية لم يك ملماً بها أو بالمضاد لها .

الكف عن التصدي للفتوى بغير علم

ورغم تلك الخطورة فأنا لست من الذين يقولون أو ينادون بإصدار مرسوم أو قرار يمنع هؤلاء وأولئك : لأن مثل هذا القرار لا يستغل إلا لتحنيط الإسلام وتحجيم الدعاة ثم الاكتفاء بالمنابر والمنائر وأداء بعض الشعائر ، ولكن أردُّ الأمر إلى الذين يتصدون للفتوى ويتصدرون للتوجيه الديني دون علم ودون فقه أن يتقوا الله في أنفسهم وفي الناس ، حتى لا يُضِلُّوا ويَضِلُّوا كما جاء في حديث الرسول ﷺ ، أو يكونوا سبباً في الفرقة والشتات الديني بين المسلمين ، والذي سيجلب للمسلمين ما جلبه لمن عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ .

ولا أحسب أن هؤلاء الإخوة بحاجة إلى أن نذكرهم بقول الله عزَّ وجل : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة : ٣٢) .

كما لا أحسبهم في حاجة إلى أن يذكَّروا بأن الذين لم يحظوا بنعمة التعمق والتفقه في الدين ليسوا خارجين عن مفهوم الآية التي خصَّت الأمة المسلمة بدعوة الحق والعمل بالحق .

كلمة أخيرة

وأخيراً فإن النهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ومنطق المصلحة العامة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصي تذكير وتشجيع ، وإشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة ، فهو مضاعفة لمجموعة الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف ، تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أنَّ معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ، ويُحبه ولا يخذله ، وهذا الدين وهو الحق لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال ، والتواصي بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، ولا بد من الصبر ، لا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الآخرين ، والصبر على الأذى والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل وانطماس المعالم وبعد النهاية ...